عام

الرؤية المنهجية للمفردة القرآنية

في فكر أبي القاسم حاج حمد

مولاي أحمد صابر
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

على سبيل التقديم:

كانت معرفتي الأولى بحاج حمد من خلال كتابه العالمية الإسلامية الثانية وكتابه منهجية القرآن المعرفية منذ زمن مبكر عن طريق بعض الزملاء في الجامعة أواخر عقد التسعينيات؛ فكانت كتبه بالنسبة لي سقفاً مرجعيا ودافعاً لي في طرح السؤال، والأكثر من ذلك أن قراءتي لكتابه العالمية قد أسهم بشكل كبير في أن أتحرر من نظرتي السالفة للدين والتدين، وأدركت بذلك قيمة القرآن العلمية والكونية. لقد صرت شخصًا مهووسا بالسؤال وبالنظر للموروث الثقافي الإسلامي، نظرة تتصف بالموضوعية بدل الوقوف عنده وتقديسه، وهذا مكنني من تجاوز الانتماءات الطائفية والمذهبية باسم الدين، وعيا مني بضرورة بناء تصور علمي ومنهجي يستوعب كل خصوصيات الناس الثقافية والدينية، على أساس أن القرآن كتاب لكل الناس جميعا؛ فالانتماء ينبغي أن يكون انتماء لكل ما فيه مصلحة للإنسان بدل العرق أو الطائفة أو المذهب، وهذه رسالة القرآن في بعض من تجلياتها.

تمنيت أن ألتقي بحاج حمد، وتحقق ذلك حين زيارته للمغرب بفضل العديد من الزملاء والأساتذة، إذ التقيته لأول مرة في بيت أحد الأصدقاء، وزرته بعد ذلك في فندق (إدو أنفا) الذي كان يقيم فيه في الدار البيضاء يوم الجمعة 20 غشت 2004، ودار بيني وبينه حديثاً حول العالمية، مؤكداً أن حركة التاريخ تسير في منحى إدراك البعد الغيبي والأخذ به بدل الإعراض عنه، وليس هناك كتاب له القدرة أن يوجه الإنسان في ذلك غير القرآن في نظر حاج حمد.

فالأيام التي قضاها الرجل داخل غرفته في الفندق كان يكتب محاضراته بخط يده، ويستقبل كل من رغب في زيارته، وكان بالضرورة أن يخلد إلى النوم عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، ناولني حاج حمد كأسًا من الشاي محلى بالعسل بدل السكر، وقد عجبت لهذا الشيخ الذي أعد الشاي بنفسه، فلا زلت أتذكر صورته، وهو يسكب الماء في الإبريق الكهربائي الذي خبرني أنه يصاحبه معه أينما رحل، وقد بعثني حاج حمد خارج الفندق، لأحضر له علبة تدخين وكان له ذلك، وسلمني كذلك بعضاً من محاضراته، وقبل أن أودعه طلبت منه أن يكتب لي بخط يده شيئًا أتذكره به، فكتب لي دعاء أوصاني بقراءته بعد الصلاة. ودعته وفيما بعد، حاولت استضافته في مراكش لكن لم يسعفه الوقت لذلك، وقد أرسل لي تسجيلاً صوتياً حول وجهة نظره في موضوع التصديق والهيمنة.

لقد سافر حاج حمد من المغرب بغية العودة إليه، إلا أن الله أخذه إليه، وكان الخبر بالنسبة لي قاسياً، صليت عليه ركعتين، وأعدت قراءة كتاب العالمية وقلبت النظر في الكثير من أفكاره...بعد أيام التقيت به في النوم بقامته الرشيقة ولونه الأسمر، وشعره ذي اللون الرمادي وبذلته الأنيقة ونظاراته ذات اللون البني، وطلب مني

أن أرافقه إلى المطار، وهو في طريق سفره إلى السودان، قال لي أموراً كثيرة لا أذكرها وشجعني على أمور أخرى... ووعدني أنه سيعود قريباً، وأنه لن يتأخر في عودته، لنكمل ما قال لي به. إن حمد رجل عرفان وتصوف بامتياز يؤمن بالرؤيا، رغم أنه لم يدون ذلك في كتبه، ولا أدري لحد الساعة بشكل دقيق ومقنع مغزى ومفاد رؤيتي ولقائي به في المنام، رغم تأويلاتي التي تبدو لي أحياناً أنها مقنعة. وفي هذه المناسبة التي نحتفي فيها بفكر حاج حمد، لا شك أنه حاضر معنا روحًا لا جسداً، بأفكاره ومعارفه التي هي أرضية نقاش بيننا اليوم، وربما أن هذا شكل معنوي من أشكال عودته التي وعدني بها رحمه الله. كما يشرفني كثيراً أن أشتغل إلى جانب الزميل الأستاذ محمد العاني في العمل على تحقيق وتصفيف ما لم يطبع من الإرث العلمي لهذا الرجل والعمل كذلك على إعادة طبع كتبه المنشورة مجدداً.

إن أبا القاسم حاج حمد يعد من المفكرين القلائل الذين أغنوا الساحة الفكرية بمقاربات فكرية اتصفت بالدقة في المنهج والصرامة المعرفية، قصد حل إشكالات الفكر العربي الإسلامي، سواء ارتبطت تلك الإشكالات بالواقع الذي نعيشه ونحياه اليوم، أو ارتبطت بتاريخ الفكر الإسلامي المتجسد في موروثه الثقافي والعلمي، أو هي إشكالات من صميم سؤال الهوية والتعددية الدينية ورؤية الآخر المتمثل بدرجة أولى في الغرب، ككيان ونسيج ثقافي ومعرفي وسياسي تحكمه ظروف وتطورات اختلفت في مجملها عن ظروف العالم الإسلامي في حاضره وماضيه.

هذه الزوايا المتمثلة في الواقع اليومي الذي يضغط بمتطلباته وأسئلته المحرجة والكينونة التاريخية التي من ورائها الموروث الثقافي الإسلامي وواقع الحضارة الغربية الحديثة ذات الطابع الكوني والعالمي، استحضرها حاج حمد في نظرته التحليلية والفكرية، مع حرصه ويقظته بألاّ تشده زاوية ويركن إليها دون الزوايا الأخرى، فهو لم يتوقف عند الموروث الثقافي الإسلامي، ليكون بذلك سلفياً يدافع عن رؤية ماضوية كما هو الشأن مع التيارات الأصولية والإسلامية، رغم استفادته الواسعة من ذلك الموروث، وفي الوقت ذاته لم تشده زاوية الفكر الغربي المعاصر والنظريات الفلسفية المعاصرة، وينتصر لطرح أيديولوجي معين، ويأخذ بذلك وصف المفكر الحداثي الذي ينصب العداء مع التراث الديني، رغم استفادته المنهجية والمعرفية من الفكر الغربي الحديث، وفي الوقت ذاته لم يركن إلى الواقع ويشتغل بالتوفيق أو التلفيق والحل الوسط بين معطيات الفكر الغربي الحديث وبين الموروث الفقهي الإسلامي، خاصة عندما يتعلق الأمر بقضايا المرأة والفن والديمقراطية والحرية والقيم... إذا ساد بين جمهور الكثير من الناس بأن الإسلام وسط بين المادة والروح، ووسط بين الرأسمالية والاشتراكية، وبأن كلمة الشورى مرادفة لمفهوم الديمقراطية...

النظر من هذه الزوايا الثلاث، جعل حاج حمد يتفرد بمنهج يتصف بالكونية والعالمية في التعاطي مع أزمة الواقع العربي الراهن، فما من قضية بت فيها بالقول إلا واستحضر أبعادها الكونية والعالمية، بدءاً بتحرير النص القرآني من الفهم المحلي والتاريخي، إلى فهم يتصف بالكونية والعالمية؛ فقد جاء كتابه العالمية الإسلامية الثانية مغطياً وباسطاً لمنهج معرفي يأخذ بشروط الكونية والعالمية في فهم وتحليل الخطاب القرآني، النص المؤسس للفكر العربي الإسلامي.

إن جبهات مشروع حاج حمد جبهات متعددة، وسأكتفي في هذه الورقة بإبراز وتقريب الرؤية المنهجية التي قال بها وطبقها في التعاطي مع مفردات النص القرآني، علماً بأن اللغة العربية ومفرداتها من المفاتيح الأساسية التي لا غنى عنها بحال من الأحوال في فهم النص القرآني، وهذا أمر بديهي، فما هو التصور المنهجي عند حاج حمد لموضوع اللغة ومفردات النص القرآني؟

انطلق حاج حمد في بنائه لرؤيته المنهجية حول المفردة القرآنية، من المداخل التالية التي بنى عليها رؤيته، وهي:

- الأخذ بالوحدة الموضوعية للنص القرآني.

- اعتبار القرآن معادلاً موضوعياً للكون وحركته.

- الدقة العلمية التي يتصف بها القرآن في استعمال المفردة.

وسنأتي على بيان هذه النقط متتبعين لفكر حاج حمد، وقبل ذلك نذكر بأن مركزية النص القرآني. في بنية الثقافة الإسلامية، جعلت هاجس هذه الثقافة يرتبط بتفسيره وبيان دلالته اللغوية وحمولته الدلالية، ويعد أصول الفقه على رأس العلوم التي اعتنت بالتقعيد للمنهج في فهم وتفسير النص القرآني، إذ شكل هذا العلم "نسيجاً متكاملاً من الآليات المقررة والأدوات الإجرائية التي وقع استمدادها من علوم كثيرة، فنجد من بينها الآليات المنطقية والكلامية واللغوية والنحوية، كما نجد من ضمنها أبواباً من علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات، وعلى الرغم من انتساب هذه الوسائل المكتسبة إلى علوم مختلفة، فإن هذا الاختلاف لم يكن مانعاً من أن تقوم من بين هذه الوسائل أسباب متعددة من الاتساق، بل أن تقوم بينها أسباب تجعل بعضها ينصهر في بعض، فتشكل بذلك مجموعاً واحداً عرف باسم المنهج الأصولي"[1] الذي بقي الإبداع فيه محكوماً بما قعد له الشافعي (204 هـ) حتى زمن الشاطبي (ق 8 هـ).

[1]- طه، عبد الرحمن، **فقه الفلسفة**، ج 1، المركز الثقافي العربي، ط. الثانية، البيضاء، 2000، ص 20

لقد قعد علماء الأصول لقواعد الفهم والنظر، وعلى رأس تلك القواعد البحث في دلالة الألفاظ في مختلف المستويات، إذ انتهى بهم الأمر إلى تقسيم اللفظ إلى واضح وخفي ومبين ومجمل ونص وظاهر، فضلاً عن قول الكثير منهم بالترادف في اللغة، بدلالة أكثر من لفظ على معنى واحد، وقولهم كذلك بالمشترك، بدلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى. فأغلب المباحث التي أطرت علم أصول الفقه اتجهت نحو البحث الدلالي، ويعتبر التقيد بهذه القواعد والوقوف عندها أمراً ملزماً للحصول على قراءة سليمة للنص القرآني وفق أدبيات أصول الفقه العلم المقعد لأسس فهم وبيان القرآن، كما أن تخطي هذه القواعد والضوابط يعد بمثابة تحريف لدلالة النص.

لقد بقي الفكر الإسلامي لقرون ولازال حبيس القواعد اللغوية والأصولية التي وضعها علماء الأصول بدءا من الشافعي، كما لم تظهر نظريات في علم اللغة من بعد عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) القائل بنظرية النظم، في الوقت الذي تطور فيه حقل الدراسات اللغوية في الغرب، كغيره من الحقول المعرفية، ومن أحدث ما توصل له البحث في علم اللغة في الغرب، هو علم الألسنيات المعاصرة، هذا فضلاً عن تنوع مناهج التحليل والمعرفة.

النص القرآني كوحدة عضوية:

أفضى التطور الحاصل في العلوم الكونية، إلى الإدراك بأن الكون الذي يحملنا، يشكل وحدة عضوية متماسكة ومتداخلة، رغم التنوع والتعدد الذي تتصف به ظواهره ومكوناته؛ ففهم الجزء منه يقتضي استحضار ما هو كلي منه، وعليه، فالكون خاضع لقوانين الوحدة العضوية أو البنائية المستمدة منه، وكذلك الأمر بالنسبة للقرآن، إذ أن موضوعاته وقضاياه، متداخلة ومترابطة فيما بينها، وفقًا لناظم التوحيد الذي تتصف به، فلا يمكن تحليل البعض من آيات القرآن مفصولاً عن البعض الآخر، فمن لم يتنبه إلى هذا الأمر الذي يتصف به القرآن سيسقط في تعضيته.

ومن بين الذين قالوا بالوحدة العضوية للقرآن، نجد عبد الله دراز من خلال كتابه "النبأ العظيم" كما أن باقر الصدر نحا هذا المنحى من خلال كتابه "التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية"، حيث دعا إلى تفسير موضوعات القرآن تفسيراً موضوعياً، تستحضر من خلاله نظرة القرآن الكلية وموقفه النظري للمواضيع التي عالجها، بدل العكوف عن المقاربة التجزيئية التي كان عليها جمهور المفسرين؛ فالنظرية أو الموقف النظري لا يتأتى بالمقاربة التجزيئية في تفسير القرآن وفهمه، لأن هَمَّ المفسر التجزيئي، أن يكشف عن جزء معين من القرآن، مفصولاً عن غيره مما سبقه في السياق أو لحقه، والنظرية تقتضي الأخذ بالكليات التي

تنتظم من خلالها الجزئيات. وهي النظرة نفسها لدى الشيخ محمد الغزالي من خلال كتبه: "نظرات في القرآن"، "كيف نتعامل مع القرآن" وغيرها من كتبه، كما أن العالم الياباني توشيهيكو إيزيتسو نحا نفس المنحى، إذ يرى أن علم الدلالة في القرآن بوصفه دراسة للمعنى، لا يمكن أن يكون إلا فلسفة من نوع جديد تقوم على تصور جديد كلي للكينونة والوجود. وذلك من خلال كتابه "الله والإنسان في القرآن".

من الملاحظ أن مقاربة هؤلاء باستثناء ما قام به توشيهيكو إيزوتسو، بأنها مقاربات لا يحكمها ضابط منهجي لطبيعة تصورها لوحدة القرآن العضوية والبنائية، إذ لم تميز بشكل منهجي ودقيق، بين بنية النص القرآني من جهة، وبين الفهم الديني الموروث؛ فمحمد الغزالي رغم دعوته إلى العودة إلى القرآن، ورغم نفيه للعديد من الأحاديث المخالفة لمضمون القرآن، فهو لم يضع منهجاً علميا واضحا تفهم فيه قضايا القرآن وفق مدخل كوني وعالمي، وكذلك الأمر مع باقر الصدر وعبد الله الدراز.

فقول حاج حمد بالوحدة العضوية والبنائية للقرآن يتجاوز ويفوق كل هؤلاء، لكونه ينظر إلى بنائية القرآن كبنائية مماثلة للكون برمته، وذلك أن القرآن يحوي بداخله منهجية معرفية كما هو الشأن بالنسبة للكون. ويحدد حمد المنهجية "بوصفها إطاراً مرجعيا لأفكار موحدة، لا تستخلص علمياً إلا من إطار موحد عضوياً"؛ فالكون برمته وبكل مكوناته لا ينفصل بعضه عن البعض الآخر، فمن الأولى التعامل مع ما فيه من ظواهر من أرض وسماء وجبال...ضمن رؤية تقوم على وحدة التكوين.

والآن يتم التعامل مع القوانين الكونية في إطار النظريات المتكاملة التي تأخذ بعلوم الفيزياء إلى علوم الإحياء...إذ يستحيل دراسة وفهم جانب من جوانب الكون بتغييب جانب آخر، وكذلك الأمر بالنسبة للقرآن؛ فهو يعد إطارا مرجعيا لأفكار موحدة ومتكاملة فيما بينها. ولم يتسن ذلك للقرآن في نظر حاج حمد إلا بفعل "الترتيب أو التركيب وقفاً من عند الله وعلى يد رسول الله، ولم يتبق لمن أتى بعد رسول الله... سوى الاستنساخ وربط الصحائف" وبهذه العملية التي قام بها الرسول الموقر بقراءة مع الروح القدس جبريل، تم ترتيب القرآن على غير مواضع النزول المتسلسلة زمنياً، وقد رد الله على الجاحدين لهذه العملية بقوله: "**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)**" (النحل: 101-102).

وبهذا، فالقرآن نسيج واحد "فإذا سقطت آية أو أسقطت يسقط الحق كله، فليس في القرآن آية ساقطة أو مرفوعة عن التلاوة وليس في القرآن ناسخ ومنسوخ"، وذلك أن صياغة القرآن مماثلة لصياغة الكون، فدقة مواقع الآيات والمفردات والأحرف لا تختلف عن دقة مواقع النجوم قال تعالى: "**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)**

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (80)" (الواقعة: 75و80)؛ فالله هنا لم يقسم بالنجم ولكنه أقسم بمواقعها في سياق التعريف بخصائص القرآن البنائية[2]، ووجه المماثلة هنا يتجسد بأنه إذا خرج نجم عن مدار المجموعة الشمسية أو اصطدم بغيره اختلت المنظومة الكونية كلها، وكذلك الشيء نفسه مع القرآن.

وحتى تكون لهذه المماثلة مصداقية واقعية، يرى حاج حمد بأن القرآن يعد لوحده فقط، معادلاً موضوعيا للوجود الكوني وحركته. ففي كتاب الكون يقرأ الإنسان آيات الله المحسوسة، بينما كتاب القرآن يحوي بداخله تلك القضايا كلها، إذ تشكل آياته مداخل معرفية في معرفة نشأة الخلق والسنن والنواميس التي تنبني عليها الحركة الكونية، وإشارات وتوضيحات عن المخلوقات في علاقة بعضها مع بعض وعن الأرض والسماء والجبال والنبات والشمس والقمر...

القرآن معادل موضوعي للوجود وحركته:

يمضي بنا حمد في بسط القول إن القرآن معادل موضوعي للكون وحركته، بتحليله للعديد من الآيات القرآنية قال تعالى: **"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)"** (الأنعام: 38)؛ فهذه الآية تشير إلى خلق مكاني يتعلق بكل الكائنات في الأرض، والتي سينتهي مآلها إلى الحشر، كما أن هذه الآية جاءت في إطار الرد على أولئك الذين طلبوا من محمد آيات عينية ومحسوسة للبرهنة على صدق رسالته كقولهم: **"وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93)"** (الإسراء)؛ فآيات محمد على صدقه هي النظر إلى آيات الخلق التي تنظر بالنظر وتدرك معانيها ودلالتها بالبصر، وقد وصف الله الكون الطبيعي بما فيه بالكتاب الذي تقرأ فيه آيات الله المبصرة، والقراءة تعبير يتسع لمعرفة أسرار الأشياء وفحصها وملاحظتها، وكشف علاقة بعضها مع بعض، والذين لا يقرؤون هذه الآيات فإنهم بآيات الله يجحدون، قال تعالى: **"قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)"** (الأنعام: 33)، فقوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ليس المقصود به كتاب القرآن؛ فالكتاب هنا تعود على كتاب الكون والظواهر المحدودة بالطبيعة والمكان في حدود ما ينظر، ويذهب حمد إلى القول إن كتاب القرآن يحوي الكون كله وليس المكان الأرضي فقط، ويحوي الزمان والمكان أيضاً، مستدلاً بقوله تعالى:

[2]- محمد أبو القاسم حاج حمد، **منهجية القرآن المعرفية**، دار الهادي، ط.1، 2003، الفصل الأول من الكتاب.

"وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)" (الحجر: 75-87) "ففي هذه الآيات يتحدث الله سبحانه عن خلق السموات والأرض؛ أي سبعاً من السماوات وسبعاً من الأرضين **"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)"** (الطلاق: 12) ثم يضاهي ما بين خلقه لهذا الوجود الكوني السباعي ومنهج الخلق؛ فالخلق قد خلق بالحق، فالحق مبثوث في الخلق وكيفية المعاني المتولدة عنه، فالله كما هو خالق فهو عليم، فحين تتم المقابلة بين الخلق والعلم على المستوى الإلهي (الخلاق العليم) تتم المقابلة بين الخلق والعلم على مستوى العطاء الإلهي للإنسان فتكون المنة الإلهية بقرآن عظيم يقابل بالوعي الخلق السباعي العظيم" فالقرآن هو المعادل بالوعي للخلق الكوني؛ أي أنه الحق الذي يعادل الخلق.[3]

ويقدم حاج حمد العديد من الأمثلة عن المماثلة القائمة بين القرآن من جهة والكون من جهة ثانية منها، قوله بأن الله قد ماثل بين القانون الطبيعي الذي يحكم الظواهر والقانون الأخلاقي الذي يحكم الزواج بين البشر بطريقة إرادية منظمة؛ فالمماثلة من خلال ما جاء في سورة الطارق[4]، تكمن بين العلاقة التي تربط السماء بالأرض، والعلاقة التي تربط الزوج وزوجته، فكما تقذف السماء بالماء، ليمتصه رحم الأرض تهيئة للإنبات ذي الغاية المحددة، يقذف الزوج بالماء في رحم زوجته ليختلط بمائها، فيأتي المولود ذكرا أو أنثى وفق شرعة التزاوج الأخلاقية. ويمضي بنا القرآن ليكشف لنا عن طبيعة تركيبة النفس البشرية المستمدة من البنائية الكونية، باعتبارها مركب تفاعل كوني **"وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)"** (الشمس: 1 إلى 8)، فتركيب النفس عائد إلى هذا التفاعل الجدلي الكوني لظاهرات الطبيعة المتقابلة (شمس- قمر) و(نهار- ليل) و(سماء- أرض) نفس (فجور تقوى)؛ فهي قابلة لتنقسم بين فجورها وتقواها. كما أن الصلاة موقوتة بظواهر الحركة الكونية للشمس.[5]

هذه المماثلة الحاصلة بين القرآن من جهة والكون من جهة ثانية في نظر حاج حمد ليست مماثلة من أجل المماثلة فقط، بل إنها تتوافق في الغائية من الخلق التي ذكرنا بها الحق سبحانه في كتابه، فليس هناك مجال

---

[3]- **منهجية القرآن المعرفية**، م.س. ص 84 و92 بتصرف.

[4]- قال تعالى: "وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)" سورة الطارق.

[5]- نفسه.

للعبث في الخلق (الطبيعة)، بل هناك حكمة بالضرورة الوقوف عندها، وهذا الأمر لم تأخذ به فلسفة العلوم الطبيعية اليوم، إذ أغفلت الفلسفة المادية الجانب الغائي والإيجابي في حركة الطبيعة، فوحدة المركبات الطبيعية جدليا يعني أن اتجاهها يقضي بصيرورة الحركة وسيولتها نحو (غاية) وحكمة كامنة في الطبيعة، والغاية تعني أن يكون (المستقبل) هو النتيجة (المتقدمة) على الحاضر وعلى الماضي، النتيجة التي (تقود) صيرورة الحركة باتجاهها؛ ففي هذه الحالة لا تستطيع المادية أن تنفي أن مادة (اللبن) المستخرج من بين الفرث والدم تنتهي لتكون – بحكم التركيب- شرابا سائغا وبنكهة تتوافق مع حاجة الإنسان بكل أبعادها، في التذوق والغذاء، إذ أن هذا التركيب الطبيعي كان محكوما بغائية وحكمة مسبقة.[6] قال تعالى: **"نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ"** (النحل: 66)، وكذلك الأمر نفسه عندما ندرس شرعة الزواج وغيرها من المواضيع المرتبطة بالقيم والأخلاق، ففلسفة العلوم الطبيعية عليها أن تكشف عن الجانب الغائي في الكون والإنسان، الأمر الذي نبه إليه القرآن في أكثر من موضع.

من الملاحظ أن هذا الطرح المنهجي الذي اعتمده حاج حمد، وهو طرح غير مسبوق له قد بسط مفهوماً جديداً للآية في القرآن، إذ خرج من المفهوم اللغوي الذي يعتمد جمالية اللفظ والمعنى، إلى المعنى العلمي الذي يفترض الدقة في الفهم والتحليل إلى درجة أن هذه الدقة لا تختلف عن الدقة في علم الرياضيات والكيمياء والفيزياء[7] بتعبير المفكر السوري محمد شحرور، كما أن المفر الياباني توشيهيكو إيزيتسو من خلال كتابه "الله والإنسان في القرآن" يرى أن القرآن يجعل من الأشياء في الحقيقة آيات الله، إذ لا يمكن إدراك طبيعتها الرمزية إلا من قبل العقلاء.[8] وعليه، فالربط جار بين منظومة القرآن الدلالية ومنظومة الوجود الحسية، وهذا يفترض بأن توظيف القرآن لمفردات اللغة، توظيف خاص ومتفرد.

الدقة العلمية التي يتصف بها القرآن في استعمال المفردة:

القول بالوحدة العضوية للقرآن واعتباره معادلاً موضوعياً للكون أخذ حاج حمد إلى القول إن الاستعمال القرآني لمفردات اللغة العربية يختلف عن الاستعمال العربي زمن نزول القرآن وبعده، وذلك أن القرآن قد وظف مفردات اللسان العربي توظيفاً تحكمه بنائية في غاية الانضباط المنهجي الذي ينتفي معه (المشترك) الذي يحمل أكثر من دلالة للكلمة الواحدة، أو (المترادف) الذي يحمل معنا واحد لعدة مفردات، " فلكل حرف في القرآن الكريم وظيفته (الألسنية البنيوية) في الإنشاء القرآني(...) فالاستخدام الإلهي للمادة اللغوية ولأية مادة في

[6]- أبو القاسم حاج حمد، **العائلة الروحية في الإسلام**، دار الساقي، ط.1، 2011

[7]- محمد شحرور، **تجفيف منابع الإرهاب**، دار الأهالي، دمشق، ط. الأولى، 2008

[8]- توشيهيكو إيزيتسو، **الله والإنسان في القرآن**، ترجمة محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. الأولى، 2007، ص 216

الكون يختلف نوعيا عن الاستخدام البشري مع وحدة خصائص المادة، استخداما يقوم على الإحكام المطلق... حيث تتحول الكلمة إلى (مصطلح دلالي) متناهي الدقة" (اللغة المثالية).

ويستمد حاج حمد مشروعية هذا الطرح من قوله تعالى: **"فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)"** (الواقعة: 75 إلى 79) فكما تخضع البنائية الكونية الطبيعية، لضوابط المجموعة الشمسية كلها، فإن خرج نجم عن مداره واصطدم بغيره اختلت موازين الأجرام كلها، فكذلك الشأن مع القرآن،[9] فالدقة في التعبير القرآني لا تفترق عن الدقة في العلوم الطبيعية والكونية، فقد ارتقى القرآن بمفردات اللغة التي استعملها إلى مستوى اصطلاحي قرآني منضبط للمنهجية المعرفية القرآنية، التي نظمت من خلالها كل موضوعاته، وإذا استند في فهم القرآن على الترادف والمشترك فسيصبح بدون أي معنى، ويكون بذلك عرضة للآراء والأقوال والتأويلات المختلفة والمتضاربة كما هو الشأن مع جمهور المفسرين وغيرهم. وعليه، فالمفردات والاصطلاحات اللغوية هي اللبنات الأساسية التي ينبني عليها المنهج، كما أن إعادة بناء المفاهيم والاصطلاحات يعد مدخلاً أساسيا في أي عمل يتصف بروح التجديد، فمنهج فهم وتحليل القرآن ينبغي أن يستمد اصطلاحاته من القرآن وحده، ويصير القرآن بذلك منبعا لمنهج الفهم والتحليل، وهذا ما حصل مع حاج حمد، إذ أخذه هذا المنهج إلى الكشف عن الحمولة المعرفية للكثير من المفردات القرآنية بشكل مفارق لما هو شائع في الموروث الثقافي الإسلامي، وقد دعا حاج حمد أكثر من مرة إلى ضرورة إخراج معجم قرآني يحدد العائد المعرفي للمفردة في إطار الاستخدام القرآني لها.

ومن بين الأمثلة التطبيقية في فكر حاج حمد، تمييزه بين مفردة (اللمس) و(المس)؛ فالقرآن لا يورد معنى (مس) بمعنى (لمس) إطلاقًا، فالمس له بعد حسي وينصرف إلى البدن والحواس قال تعالى: **"أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا"** (النساء: 43)، وكذلك قوله تعالى: **"وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)"** (الأنعام: 7). أما (المس) فيتجه إلى المعرفة والإدراك والإحساس والشعور قال تعالى: **"إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (201)"** (الأعراف: 201) وكذلك **"إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ"** (آل عمران: 120)، وعليه فمس القرآن هو إدراك له والشعور به وهذا لا يتأتى إلا للمتطهرين نفسيا وليس للمتطهرين بدنا فقط، وهذا هو مدلول الآية **"لا يمسه إلا**

[9]- **منهجية القرآن المعرفية**، م.س، الفصل الأول (بتصرف)

المطهرون"، فعلوم القرآن المكنونة لا تتكشف لغير المطهرين نفسا كالسارق والقاتل والزاني والمنتفع بها، فكرم القرآن وعطاءه لا يتكشف إلا للنفس الطاهرة.[10]

إن مشروع حمد غني بالمقاربات الجديدة التي أعطاها للكثير من مفردات القرآن، إلى درجة أن الإحاطة بهذا المشروع تستوجب الوقوف عند تلك المفاهيم كما بينها حمد، كمفهوم الحجاب عنده والخمار والسوءة ة والعورة، والهبوط والنفس والروح...

لقد خلص حاج حمد من خلال مشروعة إلى نتائج مخالفة لما هو متداول في الموروث الثقافي الإسلامي، وهذا طبيعي لأن الرجل قطع مع الآليات التي توسل بها الأوائل في فهم النص كأخذهم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه... وهذا لا يعني أن حاج حمد يقول بالقطيعة المعرفية مع التراث، بل يرفض ذلك، ففي نظره أن الذي يربطنا بالتراث هو ثوابت الإسلام التي اتفق عليها كل علماء الإسلام وفلاسفته، رغم اختلافاتهم حول تصور وفهم تلك الثوابت؛ فأبو حامد الغزالي وابن رشد مثلا ليس بينهم اختلاف حول ثوابت الإسلام، رغم اختلافهم في فهم وتفسير تلك الثوابت، فنفس الشيء بالنسبة لنا نحن معهم ومع غيرهم، بأننا نقر ولا نقطع مع ثوابت الإسلام (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج لمن استطاع إليه سبيلا).

ولكن الخلاف بيننا وبينهم في نظر حمد، يكمن في أننا نوظف مناهج ورؤى مختلفة عن مناهجهم، ضمن خصائص تكوينية مفارقة لخصائصهم التكوينية، ولا نقول بأنهم عجزوا فيما نجحنا فيه من بعدهم، وإنما نقول أنهم أبدعوا ضمن خصائصهم الفكرية، فهم قد أنتجوا ضمن خصائص العقل المحض. أما نحن، فننتج بقوة العقل مع محددات العلم النظرية والمعرفية، ولهذا يجب النظر لما خلفوا من إرث ثقافي من خلال تلك الخصائص الفكرية والمنهجية التي تشكل ضمنها وعيا بالسيرورة التاريخية وبالمتغيرات الاجتماعية، بدل التقليل من شأن ذلك الموروث الثقافي.[11]

بهذه الرؤية المنهجية الآخذة بالمنهج البنيوي في التحليل الذي يفترض دراسة العلاقات المتبادلة بين العناصر الأساسية المكونة للبنية، يكون حاج حمد قد أسس لمنهج ذي طابع بنيوي يسعى لقراءة النص القرآني من خلال دراسة وتحليل العلاقة التي تربط بين مفرداته، وبين الموضوعات التي عالجها سواء تعلق الأمر بالكون أو الإنسان.

---

[10]- نفسه.

[11]- محمد أبو القاسم حاج حمد، **العالمية الإسلامية الثانية**، دار ابن حزم، ج.1، ص ص 189و190 (بتصرف)

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com